ب ـ دراسة تفصيلية لشعر حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة
(من شعراء الدعوة)

حسان بن ثابت

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي . حدد الباحثون سنة ولادته بعام ٥٦٣م ١٩٥ق.هـ اعتماداً على مقولة حفيده سعيد بن عبدالرحمن الذي ذكر ان عمر جده كان ثلاثاً وخمسين سنة عند مقدم الرسول (ﷺ) . وكان لقبيلته شأن قبل الاسلام ودور كبير بعده حين نصروا رسول الله (ﷺ) وآزروه . وكان شعره لسان حال قومه يفخر بهم ، ويعدد أمجادهم ، ويعلي شأن رؤسائهم وفرسانهم . وقد وصل الينا من شعره الجاهلي شعر كثير اذا قسناه بما وصل الينا من شعر عبدالله بن رواحة مثلا . كما ان ماوصل الينا منه يعد كافيا الى حد ما بحيث ممكن موازنته بمجموع اشعاره .

كانت لحسان قبل الاسلام اشعار قائمة على الفخر والمديح مما شأنه في ذلك شأن الشعراء العرب الذين تغنوا بامجاد قبائلهم وفخروا بدورهم في اعلاء شأنها والاسهام في سيرورة مجدها بين القبائل .

ويذكر ابو الفرج الاصفهاني أكثر من رواية تبين اول اتصال حسان بالغساسنة بعمرو بن الحارث الغساني او جبلة بن الايهم الغساني وانه كان بحضور الشاعرين النابغة الذبياني وعلقمة الفحل . وان الممدوح حين سمع قصيدتيهما عرض على حسان أمرين أن ينشد كما انشدا أو يسكت . واثر حسان أن ينشد فقرا قصيدته التي مطلعها :

اسألت رسم الدار ام لم تسأل فالبرهميع حارصواهله
بين الجوابي فالرصيع فحومل (٩٦)

وحين انتهى منها علق الامير الغساني بأن قصيدة حسان ليست بدون قصيدتي النابغة وعلقمة (٩٧) وانه قال : هذه والله البتارة التي قد بترت الدائح

---

(٩٥) دائرة المعارف الاسلامية م٧/٣٧٥ . وانظر دراسة محمد طاهر درويش عن حسان بن ثابت

(٩٦) الجواني، البشبيع، حول اسماء مواضع

(٩٧) الاغاني ٨/١٤

اثر الحضارة على أدب حسان

ومن يراجع علاقة حسان بالغساسنة يشعر بصدق مدائحه في كثير من قصائده ، ولعل صلة القرابة التي تربطه بهم عكست صدق فخره بقومه ، ومديحه لهم . وقد ترك جمال دمشق أثره في شعر حسان الذي قاله في الغساسنة وكان طبيعيا ان يترك هذا الجمال اثره في نفسه ، وان تطبع تلك الحضارة التي عاش في اكنافها دهرا شعره بطابعها ، وان يستسمح طبعه ويسمو ذوقه ، وان تطلق الخمر لسانه فيتغنى بما رأى ماشاء الله ان يتغنى في شعر هو صورة لما احاط به من جمال ، عذوبة لفظ ورنين جرس وروي موسيقى ، ورقة غزل وابداعا في الخمريات والوصف[٩٨] والواقع ان هذا الوصف الجميل لشعر حسان يصدق على بعض اشعاره التي قالها قبل الاسلام ، وان خلت اشعاره الاخرى منها وتفاوتت بين الرقة والركة والجمال ، والنظم والابداع في الوصف الى التقرير والاوصاف الجامدة ومالى ذلك مما سنحاول التعرض له في مقارنة اشعاره الجاهلية والاسلامية .

وقد قيل ان لحسان اشعارا في المناذرة لثبوت الاخبار التي وصفت وفوده عليهم[٩٩] وليس في ديوانه ولافيما نسب اليه من شعر شيء افرده لمدح النعمان او المناذرة عامة كما كان يفعل مع الغساسنة وهذا مما يدعو الى الظن بأن شعره فيهم قد تناوله الضياع[١٠٠] وحتى ابياته التي ذكر انها قيلت في فخره بفك اسير من قومه لدى الغساسنة[١٠١] نرجح كونها من شعره الاسلامي لان محقق الديوان - البرقوقي - علق عليها بقوله : «وقال رضي الله عنه لرجل من الانصار اسرته غسان يقال له ابي[١٠٢] .

ويدخل حسان بن ثابت الاسلام ولانعرف بالضبط سنة اسلامه الا ان اسم اخيه اوس بن ثابت يرد ضمن من شهد بيعة العقبة الثانية من الاوس والخزرج[١٠٣] : ويذكر له اول ماقاله من شعر رادا فيه على ضرار بن الخطاب الذي فخر باسره سعد بن عبادة بعد بيعة العقبة الثانية :

---

(٩٨) حسان بن ثابت/ محمد طاهر درويش

(٩٩) لاغاني ١١/ ٢٧-٢٩-ط. دار الكتب

(١٠٠)(١٠١) حسان بن ثابت ١٥٣، ١٥٥

(١٠٢) ديوانه ٣٠٣

(١٠٣) السيرة ١٩٢/٢

تداركت سعداً عنوة فأخذته
وكان شفاه لو تداركت منذرا

ولو نلته طلت هناك دماؤه
وكان حريا ان يهان ويهدرا

وقد كان سعد بن عباده والمنذر بن عمرو من نقباء قومهم في تلك البيعة فلحقت بهم قريش واسرت سعدا وربطت يديه الى عنقه وادخل مكة وعذب وضرب ، واما المنذر بن عمرو فقد هرب منهم ونجا . وهنا يرد حسان على ضرار في اول شعر قاله في الاسلام :

لست الى عمرو ولا المرء منذر
اذا ما طايا القوم اصبحن ضمرا

ولولا ابو وهب لصرت قصائد
على شرف الورقاء يهوين حسرا

فانما ومن يهدي القصائد نحونا
كمستبضع تمرا الى اهل خيبرا(١٠٤)

الى اخر الابيات التي يفخر فيها بشعره ، ويردّ على ضرار فخره بأسر سعد ، ولم يتجاوز هذه المعاني الى الافكار الاسلامية الجديدة التي آمن بها . بعد هذا الحادث نستطيع ان نتابع اشعار حسان متابعة تاريخية من خلال التعليقات التي سبقت اشعاره ودلت على زمن قوله او من خلال اشاراته الى الحدث الذي اقتضى ان يقول فيه الشعر . وقد بدا فيها حسان مشغولا شغلا تاما بالدعوة الاسلامية يرد على شعراء المشركين ويهجو فعالهم ويفخر بالمآثر الاسلامية يخلد انتصارات المسلمين . ويمدح الرسول (ﷺ) مديحا يربأ به ان يكون مديحا شخصيا غالبا انما جعله قرين الوحي والنبوة والرسالة الخالدة . وقد عرف الرسول (ﷺ) مكانة حسان وشعره ودوره في الرد على المشركين حين خاطب الانصار بقوله : مايمنع القوم الذي نصروا رسول الله بسلاحهم ان ينصروه بالسنتهم ؟ فقال : حسان بن ثابت انا لها واخذ بطرف لسانه وقال : والله مايسرني به مقول بين بصرى وصنعاء ، ولو شئت لفريت به المزاد . فقال : كيف تهجوهم وانا منهم فقال : اني اسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين قال فأذهب الى ابي بكر

(١٠٤) ديوانه : ١٩٢

فسيحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم وأهجهم وجبريل معك[١٠٥] ويكفي حسان فخرا ومكانة ان جعل رسول الله (ﷺ) شعره معضدا بالوحي وبجبريل وبروح القدس بيانا لمكانته ودفاعه عن الدعوة الاسلامية وفي ديوانه قصائد يرد فيها على المشركين كقوله راداً على ابي سفيان بن حرب في فخره بقتل رجال من المسلمين في أحد ومجيبا هبيرة بن ابي وهب المخزومي بقوله :

سُقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم
الى الرسول فجند الله فخزيها[١٠٦]

وله قصائد يرد فيها على عبدالله بن الزبعرى وابي سفيان بن الحارث وقصيدة حسان الهمزية تمثل رائعة من روائع شعره الحماسي الذي استطاع حسان من خلاله ان يعيش حدث الفتح الاسلامي بعاطفة وحماس كبيرين يكاد ينسيك مساهم به من جبن او عدم مشاركة في القتال الفعلي[١٠٧] مما سنعرض له في تحليل القصيدة .

واذا كان حسان في اهاجيه قد جمع بين شتم قريش بقيم ماقبل الاسلام وتسفيه رأيها بالمبادىء الاسلامية فانه في الرثاء بدا صادقا في دعم الدعوة الاسلامية من حيث ربطه بالمفاهيم الاسلامية الجديدة التي تحول حرقة بكاء فراق القتلى الى بشر بفوزهم بالجنة وحزن على فراق فيه :

تأوبني ليل بيثرب أعسرُ
وهم اذا ما نوم الناس مسهرُ
لذكرى حبيب هيجت ثم عبرة
سفوحا وأسباب البكاء التذكرُ
بلاءٌ وفقدان الحبيب بلية
وكم من كريم يبتلى ثم يصبرُ

(١٠٥) الاستيعاب ١/١٢٨

(١٠٦) ديوانه ١٢٤

(١٠٧) انظر في مناقشة جين حسان كتاب محمد طاهر درويش - حسان بن ثابت ١٧٩

ويذكر بعد هذه المقدمة الشهداء الذين وقعوا في هذه المعركة فسبقوه الى الموت المقدر المكتوب :

رأيت خيار المؤمنين تواردوا
شعوبُ وقد خلفت فيمن يؤخر
فلا يُبعدُن الله قتلى تتابعوا
بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ

الى ان يقول :

فصار مع المستشهدين ثوابه
جنان وملتف الحدائق اخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد
وفاء وامرا حازماً حين يأمر

فما زال في الاسلام من ال هاشم
دعائم عز لاترام ومفخر

خصائص مراثي حسان
مميزات مراثي حسان للرسول (ص)

اما مراثيه لرسول الله (ﷺ) فقد اخذت طابعا اخر انها تمثل حزنا حقيقيا لفقد النبي الموجه لحياة المسلمين جميعا ، والمرشد الموجه لحسان نفسه ، ففقدة - كان قد عم المسلمين جميعاً فقد ترك في نفس حسان فراغا كبيرا حين كان يجعل شعره شغله الشاغل بين يدي رسول الله (ﷺ) فضلا عن وصفه الرائع للفراغ الذي احس بهوله المسلمون جميعا فموت الرسول (ﷺ) انقطاع عن الوحي وحامل الرسالة ... واذا كان حسان قد ذكر الرسوم في مطلع مراثيه فانها رسوم واطلال تختلف عن رسوم الناس الاخرين لان آياتها خالدة ولكنها في الوقت نفسه تجدد الحزن عليه :

حفظ (ه)

بطيبة رسم للرسول ومعهدُ
منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولاتمحي الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادي الذي كان يصعدُ
وواضح آيات وباقي معالم
وربعٌ له فيه مصلى ومسجد

بهـــا حجرات كان ينزل وسطهـــا
من اللـــه نـــور يستضـــاء ويـــوقـــد
معـــالم لم تطمس على العهـــد آيهـــا
اتاها البلى فـــالآي منهـــا تجـــدد

وحين يهم بتعداد مآثر الرسول (ﷺ) يشعر بتبلد نفسه وحيرتها فيما تذكره وتعدده لان مآثره (ﷺ) اكثر من ان تحصى ..

واذا كان المسلمون قد غيبوا جسده الشريف في القبر فانما يغيبون خلقا عظيما من الحلم والعلم والرحمة ومن ثم فالحزن عام شمل جميع المسلمين شهدته السموات والارض :

ظللت بهـــا ابكي الرســـول فـــأسعـــدت
عيـــون ومثـــلاهـــا من الجفن تسعـــد
تـــــذكر آلاء الرســـول ومـــــا ارى
لهـــا محصيـــا نفس فنفسي تبلـــد
مفجعـــة قـــد شفهـــا فقـــد احمـــد
فظلت لالاء الرســـول تعـــــدد

الى ان يقول :

لقـــد غيبـــوا حلمـــا وعلمـــا ورحمـــة
عشيـــة علـــوه الثرى لا يـــوســـد
وراحـــوا بحـــزن ليس فيهم نبيهم
وقـــد وهنت منهم ظهـــور واعضـــد
يبكـــون من تبكي السمـــوات يـــومـــه
ومن قد بكتـــه الارض فـــالنـــاس أكمـــد

ويستمر في هذه القصيدة في رثاء الرسول (ﷺ) جامعا بين شعوره الشخصي بالحزن عليه والشعور الجماعي بفقد النبي الهادي معددا صفات القيادة التي اتسم بها الرسول (ﷺ) والتي وجه فيها المسلمين في حياتهم الدينية وسلوكهم اليومي خاتما قصيدته بامله الكبير باللقاء به (ﷺ) يوم البعث في جنة الخلد التي وعد بها المتقون .

وليس هوائي نازعا عن ثنائه

لعلي به في جنة الخلد اخلد[108]

مع المصطفى ارجو بذاك جواره

وفي نيل ذاك اليوم اسعى واجهد

وهكذا يستمر حسان بن ثابت في قصائده الاخرى الرائية للرسول (ﷺ) مؤكدا نوازعه الثلاثة ، الم شديد لفراق الرسول (ﷺ) وشموخ خلقه وفعاله وخلود الرسالة التي حملها وبيان عاطفته ولهفته في ان يلقاه في الجنة مصورا عبر ذلك حزن المجموعة الاسلامية والفراغ الذي احس به المسلمون حين فوجئوا بموته (ﷺ)

اما مكانة شعر حسان من الناحية الفنية فقد ذكرت فيه اقوال كثيرة قديمة وحديثة وبنيت عليها اراء نقدية لعل اهمها ماله صلة بضعف لغة الشعر في الاسلام او قوتها .

قال ابو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي (ﷺ) في النبوة وشاعر اليمن كلها في الاسلام ونص ابو عبيدة على تفضيل حسان على شعراء الحضر وهو رأى ابي عمرو بن العلاء ايضا .

قال ابو عمرو بن العلاء : «اشعر اهل الحضر حسان بن ثابت»

وقال ابو عبيدة : اجمعت العرب على ان حسانا اشعر اهل المدر[109]

اما ابن سلام فقد عدّ فحول المدينة خمسة هم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وقيس بن الخطيم وابو قيس بن الاصلت واشعرهم حسان بن ثابت وقال عنه . هو كثير الشعر جيدة وقد ذكر ابن سلام مقالة احدهم بوصف بيت قاله حسان بانه لو مزج به ماء البحر لمزجه[110] . وتابعه على ذلك ابو الفرج الاصفهاني[111] اما الاصمعي فقد ذكر عنه اكثر من رأي عن حسان سبب نقاشا وخلافا بين الباحثين فقد ذكر عنه انه وصفه بانه احد فحول الشعراء ولكننا اذا راجعنا رسالته المسماة فحولة الشعراء لم نجد فيها ذكرا لحسان بن ثابت ومع ذلك نجد محاورة بينه وبين ابي حاتم السجستاني الذي يروى عنه كتابه فحولة الشعراء يذكر

---

(١٠٨) ديوانه ١٧٩ فما بعدها سعدت : اعانت وشعوب : اسم من اسماء المنية .

(١٠٩) الاستيعاب ١٧٩/١ - ١٣٠ .

(١١٠) طبقات فحول الشعراء ٨٧، ٨٨ .

(١١١) الاغاني ٩-٣٢٧

فيها الاحير ان في اشعار حسان لينا فيجيبه الاصمعي تنسب اليه اشعار لاتصح عنه[١١٢] وهذا يعني ان بعض اسباب الضعف والركة في شعر حسان مرده الى شعره الموضوع عليه وقد اكد هذه الفكرة ابن سلام ايضا حين اشار الى كثرة الوضع على شعر حسان .

الا ان الرأي الأخر الذي ذكر عن الاصمعي هو تميزه بين شعر حسان الذي قاله قبل الاسلام وبعده فهو يرى ان شعر حسان قبل الاسلام من اجود الشعر .. وهذا يعني ان شعره في الاسلام اقل منه جودة فاذا بحثنا عن سبب ذلك برأي الاصمعي وجدناهم ينسبون اليه تعليلا مفاده «الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان الاترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي وحمزة وجعفر غيرهم لان شعره وطريق الشر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحلة والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا ادخلته في باب الخير لان .

ان اهم مايمكن ان نناقش به هذا النص ان صحت نسبته الى الاصمعي ماياتي :

١- لم يكن شعر حسان قبل الاسلام في باب الشر حتى يقال انه علا في الجاهلية فاذا دخل في خير الاسلام لان ، لانه لم يؤثر عن حسان اشتراكه في حروب قومه وقوة شعره تبعا لذلك لان حياة حسان قبل الاسلام كانت حياة وادعة مترفة حياة شاعر يسكن الحضر فهو بين يثرب ودمشق ومافي المدينتين من ترف واستقرار يؤديان بالتأكيد الى سلاسة لغته الشعرية .

٢- ان شعر حسان الذي قاله قبل الاسلام لم يكن على نمط واحد لم يكن كله بمستوى الابداع والجودة الذي قد نتخيله اذا سمعنا برأي الاصمعي انما شعره متفاوت بين الجدة والابداع والركة والسهولة وكذا كان شعره الاسلامي وانك لتجد الفرق كبيرا من حيث الجزالة وخفة الالفاظ وجمال التصوير وتتابع المعاني الواردة في قصيدته اللامية التي قالها قبل الاسلام وبين قصيدة اخرى قالها في الوقت نفسه يرد فيها على قيس بن الخطيم يقول حسان في رائعته الاولى :

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلق في الزمان الاول

يشون في الحلل المضاعف نسجها
مشي الجمال الى الجمال البزل

---

١١٢) الموشح ٦٢ . الاستيعاب ١٣٠/١ وانظر حسان بن ثابت/ درويش ٥٠٣ وفيه تفصيل هذا الرأي ومناقشته .

الضاربون الكبش يبرق بيضه
ضربا يطيح له بنان المفصل (١١٣)

والخالطون فقيرهم بغنيهم
والمنعمون على الضعيف المرمل

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن ماريه الكريم المفضل

يغشون حتى ماتهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

ويستمر على هذا النمط الجميل من التغني بالفخر بقومه ومديح الغساسنة الذين يفخر بصلته بهم ايضا حتى ليكاد كل بيت من ابيات القصيدة ان يشمخ بنفسه رقة وجمالا وتصويرا وقد وصف ابن سلام هذه القصيدة بانها من شعره الرائع الجيد (١١٤) ، فاذا قارنت هذه القصيدة باخرى قالها رادا على قيس بن الخطيم وجدت بونا واسعا . وفرقا كبيرا في اللغة الشعرية وبنيا القصيدة واخيلتها مما يجعلنا نؤكد كون حسان بن ثابت من الشعراء الذين تفاوتت اشعارهم اجادة وابداعا وانحطاطا او ضعفا وهذه ملاحظة تصدق ايضا على شعره الاسلامي الذي تجد فيه صدق عاطفة وجمال تعبير وحلاوة عبارة ترفع اشعاره الى درجة الفحول من شعراء الاسلام ، وتجد ابياتا اخرى دون ذلك او فلنقل ابياتا اتسمت بالركة والضعف لغة واسلوبا وخيالا . ولادخل في ذلك بمسألة كون شعره في الاسلام قد ضعف بسبب افتقاده الكذب والتزييف .

٣- ان كثيرا من اشعاره التي بدت ضعيفة ركيكة يمكن ان تدرج تحت الشعر الموضوع الذي دسه القدماء على كثرة وضعه على لسان حسان لسبب من اسباب الانتحال المعروفة (١١٥)

---

(١١٣) الكبش / السيد ، البيض جمع أبيض وهي السيوف والهرير صوت الكلب دون النباح

(١١٤) طبقات فحول الشعراء ٨٧

(١١٥) الرجع في هذا ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات الجزء الاول ، الروايات والتخريج الشرح والتعليقات ، العصر الاسلامي ـ ضيف ١٩ شعر المخضرمين ودراسات في الادب الاسلامي القط ٢٤ .

٤- ان الدراسة التحليلية لمراثي حسان في الرسول (ﷺ) او في شهداء المسلمين تؤكد خلاف رأي الاصمعي لأننا وجدنا فيها صدقا في العاطفة ، واندفاعا في تسخير هذه المراثي في سبيل الدعوة الاسلامية ، وهذا مبدأ ماكان يدفع حسان في مراثيه التي قالها قبل الاسلام والتي بدا بعضها خاليا من الروح والعاطفة .

٥- يضاف الى كل هذا ان التفاوت في شعر حسان مرده الى طبيعة الدعوة الاسلامية التي عاشت ظروفا صعبة ومختلفة جعلت الشعر احدى وسائلها في المواقف ، وقد عرف عن حسان انه كان يرتجل في كثير من المواقف ، وهذا الارتجال قد يبدع فيه حسان او قد لايتجاوز فيه النظم والرد على المشركين فمقتضيات الامر تتطلب منه الوقوف الى جنب المسلمين والدفاع عنهم ازاء ابيات قيلت فيهم . قد يصيب فيها حسان في الاجادة الفنية او قد يخطأ ولكنه يبقى ملتزما فيما وجه اليه مما جعل شعره سلاحا بناءً يخدم الدعوة والمسلمين .